مُقَدِّمَة

السحر علم، أو علم سابق على العلم، إنه أول مرحلة من مراحل التطور العقلي وبداية المنطق الإنساني، وليس كما يظنه البعض مجرد اتصال بعالم شيطاني أو قوة شريرة أو علم مدنس ليس له منطق. وفريزر يؤكد أن السحر هو أول مظهر من مظاهر التفكير الإنساني، وظاهرة اجتماعية عامة، كما أنه واحد في جوهره في كل زمان ومكان.

ويعتبر ليفي شتراوس أن السحر لا يختلف عن العلم من حيث أنه يمثل أعتى تجليات اللامعقول، وأن السحر والعلم كليهما يشهد على عمله الفاعلية الرمزية ولكن الفرق بينهما ينحصر في قطاعية العلم وكونية السحر.

وقد اختلط الدين والعلم بالسحر منذ أقدم العصور، فعلوم الطب والصيدلة والكيمياء والفلك والتنجيم، نشأت في جوف السحر. وقدامى العلماء كانوا سحرة. وقد أكد القرآن الكريم ذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩]. وفي آية أخرى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأَعراف:١١٢]. وقَد اعتبر الإمام الغزالي السحر من العلوم المذمومة لأَنه قد يؤدِّي إِلَى ضرر بصاحبه أو بغيره.

والسحر له قوانينه الخاصة؛ قوانين التجاور والتشابه والتضاد. فقانون التجاور يستند إلى مبدأ قديم هو أن خصائص الجزء تحتوي على خصائص الكل، ولذلك فإن أسنان الإنسان وأظافره ولعابه وعرقه تمثل الإنسان نفسه كما يقول هوبيرو موس: ماهية الشيء تخص الجزئيات كما تخص الكل. وقانون المشابهة يستند إلى مبدأ الشبيه يدعو الشبيه وله أثر في إيقاع الضرر به أو شفائه، وعندما يقوم الساحر بإطلاق تعاويذه على صورة أو دمية يكون لها أثر على الشخص موضوع الصورة. أما عن قانون الضد فمفاده أن الشبيه يعمل على ذهاب الشبيه كي يحدث الضد أو العكس.

وقد قسم ابن خلدون السحر إلى ثلاثة أقسام:

١- المؤثر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا ما يسميه الفلاسفة بالسحر.

٢- الذي يستعين بالأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد، ويسمونه الطلسمات

وهو أضعف رتبة من الأول.

٣- الذي يعمد صاحبه إلى التأثير في القوى المتخيلة فيلقى فيها أنواعًا من الخيالات والمحاكاة وصورًا مما يقصده، فيظنها الرائي حقيقة وهي ليست كذلك، ويسمى هذا النوع بالشعوذة.

ويرتبط السحر بخمسة علوم هي:

١- علم السيمياء: وهو العلم الباحث عن مزج القوى الإرادية مع القوى الخاصة المادية للحصول على غرائب التصرف في الأمور الطبيعية.

٢- علم الليمياء: وهو العلم الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية باتصالها بالأرواح القوية العالية كالأرواح الموكلة بالكواكب والحوادث وغير ذلك بتسخيرها أو اتصالها واستمدادها من الجن بتسخيرهم، وهو فن التسخيرات.

٣- علم الهيمياء: وهو العلم الباحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثيرات (الطلسمات)، فإن للكواكب العلوية والأوضاع السماوية ارتباطات مع الحوادث المادية، كما أن العناصر والمركبات وكيفياتها الطبيعية كذلك، فلو ركّبت الأشكال المناسبة لحادث من الحوادث كموت فلان، وحياة فلان، وبقاء فلان مثلاً مع الصورة المادية المناسبة أنتج ذلك الحصول على المراد، وهذا معنى الطلسم.

٤- علم الريمياء: وهو العلم الباحث عن استخدام القوى المادية للحصول على أثرها، بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الأنحاء، وهو فن الشعوذة.

٥- علم الكيمياء: وهو علم يبحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض.

يقول بطرس البستاني إن السحر بأنواعه مبنى على علم الهيئة أو التنجيم. إذا عدنا إلى الوراء كثيرًا وجدنا أن الكدان هم وراء انتشار السحر، بل هناك من يرى أن الكلدان (البابليون القدماء) هم أول من استخدم السحر. وقد أكد القرآن في قوله تعالى: ﴿. . **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ** . .﴾[البقرة:١٠٢]. فالتنجيم ملك العلوم المتعلقة بالكائنات المحسة، إذ إنه يدرس أقواها، فبواسطته تنفذ إلى النفس الإنسانية

الفلسفة عن طريق مشاهدة النجوم وحركتها المتناسقة. فالكلدان كانوا يكرسون وقتًا لعلم العرافة ويقومون بالتنبؤ بالمستقبل، كما كانوا يحاولون تجنب الشر والحصول على الخير، سواء بواسطة طقوس التطهير أو بواسطة القرابين والتعاويذ، وليس ثمة شك أن الكلدانيين هم أكبر الشعوب علمًا بالفلك، وأنهم أشد من أهتم بهذا العلم؛ فهم بسبب مشاهدتهم الكواكب منذ الأزمنة السحيقة كانوا يعرفون مداراتها بكل دقة، ويعرفون كذلك تأثيرها على البشر، مستطلعين بذلك مستقبل الجميع، فالخبراء يعرفون كيف يستنتجون الطالع من إشراقة هذا الكوكب أو مغيب ذلك، وتمكنوا من التنبؤ بأمور كثيرة تخص الملوك كانتصار داريوس، والإسكندر الأكبر، وأنتيغونا، وسلوقيوس نيكانور، وتحققت هذه التنبؤات كلها في أزمنتها ومواقعها المحددة!

ولكن هذه المعرفة بأحوال الكواكب والنجوم لم تبق دائمًا حبيسة البلاط الملكي بل خرجت إلى الناس وأصبح لدينا الساحر بدل الكاهن، ورصد الكواكب لم يعد مجرد تقارير تقدم إلى الملك بل أصبح رصدًا هدفه عمل السحر، فقد أخذ هذا العلم طابعه العملي، وهكذا تحول إلى كابوس يقض مضاجع الحكومات، حيث أُبعد المنجمون من إيطاليا عام ١٦ في عهد تيبر، ورغم ذلك فقد حدث في عام ٢٠ أن اتهم المنجمين في قضية تسميم فرأى أفلاطون أن يُحكم عليهم بالسجن المؤبد، بينما قرر فيلون أن يقتلوا بواسطة أي شخص دون محاكمة، وهكذا بدأت مطاردة السحرة في العالم أجمع.

وهذا الكتاب "سحرة ومشعوذون" يلقي الضوء على بعض أعمال السحرة والمنجمين والعرافين والمشعوذين في معظم أنحاء العالم، معتمدًا على الأخبار الموثقة التي تناقلتها وكالات الأنباء والصحف العالمية والمحلية؛ لنكتشف أن السحر بكل أنواعه مازال مسيطرًا على كثير من أذهان العامة والخاصة، وأن مساحته لم تتقلص رغم كل التقدم العلمي والتكنولوجي الذي وصلت إليه البشرية!

عطية حسن